العلم والصوفية

للدكتور مشرفة وكيل كلية العلوم واستاذ الرياضة التطبيقية فيها

خطبة اذيعت بالراديو من محطة شريدل بالقاهرة تحت رعاية جمعية الشبان المسيحية

قد اذيع على حضراتكم انني سأتحدث إليكم الليلة عن العلم والصوفية ومع انني اخترت الفاظ هذا العنوان بكل تدقيق كما ان حضرات المسئولين عن الاذاعة قد بلغوها إليكم بكل امانة إلاّ انهُ قد وقع مع ذلك خطأ في العبارة أرى من واجبي بادىء ذي بدء ان انبه عليهِ. اما المسئول عن هذا الخطأ فهو ذلك الشخص المنوي الذي وضع قواميس اللغة العربية ورسم خطة تطورها. فان هذا الشخص مع غزارة علمهِ وعلوّ كعبهِ في اللغة وثروة مفرداتهِ قد عزُبَ عن بالهِ ان يضع كلمة في لغتنا تقابل الكلمة الافرنجية mysticism. ولما كنت سأشير إلى معنى هذه الكلمة مراراً وتكراراً في حديثي اليكم الليلة فسأستبيح لنفسي استعمال كلمة استحدثتها لهذه الغرض وهي كلمة « الخفائية » فعنوان حديثي إذن هو « العلم والخفائية ». اما وقد صُغتُ لكم العنوان بما يتفق وغرضي منهُ فسأنتقل بكم إلى تحديد هذا الغرض حتى نتفق جميعاً على معناهُ وبذلك يسهل بيننا التفاهم. فاما عن العلم فاقصد بهِ الجزء من المعرفة البشرية المبنيّ على المشاهدة المباشرة كالعلوم الطبيعية والكيميائية وعلوم النبات والحيوان والجيولوجيا وما الى ذلك. فهذه العلوم كما تعرفون اساسها نتائج التجارب التي نقوم بها في معاملنا ومراصدنا وحقولنا الخ وهي ترمي إلى التوفيق بين هذه النتائج باستخدام التفكير البشري، وبذلك يتكوّن لدينا مجموعة متماسكة تكون وحدة مرتبطة الاجزاء يقبلها العقل البشري ويبني عليها مع سعيهِ المتواصل في تكميلها وإحكامها بما يجعلها متفقة مع نتائج المشاهدة من ناحية ومع المنطق او التفكير الصحيح من ناحية اخرى. وهنا وجب عليّ ان اذكر ان دائرة خبرتي العلمية تكاد تكون محصورة في العلوم الطبيعية كعلم الطبيعة وعلم الفلك وعلم الميكانيكا ولذا فكلما ذكرت العلم كانت هذه العلوم مرتسمة في ذهني مصورة اوضح من غيرها وعلى ذلك فسأطلب منكم ان تجاروني في ذلك فتفهموا بالعلم العلوم الطبيعية على وجه الخصوص

واما عن « الخفائية » فاقصد بهذه العبارة مذهباً فلسفيًّا خاصًّا مؤداهُ أن حقيقة الكون خافية لا سبيل إلى معرفتها عن طريق الحواس ولا عن طريق التفكير الصحيح. فالكون

في رأي الخفائيين سرٌّ من الاسرار او طلسم من الطلاسم لا تعرف حقيقتهُ بالنظر اليهِ ولا تدرك كنههُ العقول . إلاَّ ان هناك سبلاً خاصة للوصول إلى هذه المعرفة هي السُبل الروحية وهي تختلف اختلافاً بيِّناً عن المشاهدة وعن التفكير . ومذهب الصوفية مذهب من المذاهب الخفائية نشأ في الاسلام واتبع اصحابه نظاماً خاصة من التعبُّد والتأمل الروحي. فالصوفي يصل بهذه الوسائل إلى حالة نفسية خاصة هي ما يسمونها حالة «الاشراق» وعندها يشعر بوحدة الكون وتتكشف لهُ حقيقة الكون . ومن المهم ان نلحظ ان « الخفائية » كمذهب فلسفي وان كانت مرتبطة بالصوفية كنظام عملي الا انها قائمة بذاتها مستقلة عنها . فالخفائية هي مجرد انكار حقيقة المظاهر التي تقع تحت حسنا او هي اثبات خفاء حقيقة الكون. في حين ان الصوفية هي طريقة عملية للوصول الى الحقيقة بالسبل الروحية

اظنني قد وضحت توضيحاً كافياً ما اقصده بكل من العلم والخفائية . فما هي الصلة بينهما

قد يظهر لأول وهلة انهُ لا يمكن ان تكون هناك صلة بين الاثنين. فالعلم يطلب المعرفة عن طريق الحواس ويستخدم التفكير الصحيح والخفائية تنكر حقيقة ما يصلنا عن طريق الحواس وتتطلب المعرفة في حالة نفسية لا تتفق مع التفكير الصحيح . العلم لا يقتنع إلا بما تثبتهُ التجارب والعالم رجل عملي لا يصدق إلاَّ ما يرى او ما يستنتجهُ المنطق مما يرى. والحقيقة في رأيهِ هي هذا العالم المحسوس الذي يُلمس ويُسمع ويُنظر. أما الفيلسوف الخفائي فيدعي ان كل ما يلمس ويسمع وينظر إنما هي ظلال للحقيقة وان وراء هذه الظلال توجد الحقيقة الابدية التي لا تصل الى الحسّ ولا تدركها العقول . وهنا دعوني اوضح الموقف بان اتلو عليكم محاورة وهمية بين عالم وفيلسوف خفائي

العالم : انت تدعي ان كل الحقائق التي نصل اليها عن طريق الحواس إن هي الاَّ اوهام

الفيلسوف : نعم او بعبارة اخرى اصح هي ظلال للحقيقة

العالم : إذن فهذه المائدة وهذا المصباح وهذا الكرسي الذي أراه كلها اوهام ؟

الفيلسوف : أن ما يصل اليك عن طريق الحواس من هذه المائدة وهذا المصباح وهذا الكرسي هي ظلال لحقائق هذه الاشياء. أما كنهُ هذه الاشياء فلا يمكن ان يصل اليك عن طريق الحواس بل ان تفرقتك بين اجزاء الكون وتسمية كل جزء باسم خاص هو من عملك انت . اما الحقيقة فوحدة متماسكة لا تتجزأ

العالم : واذن فكيف تصل الى معرفة هذه الحقيقة

الفيلسوف : عن الطريق الروحي حيث تدرك وحدة الكون وتتجلى لك الحقيقة

العالم : ولكني افهم ان معنى هذا انك تضع نفسك في حالة نفسية خاصة لا يمكنني ان اصفها

بأنها حالة طبيعية بل هي أشبه بحالة الاغماء فلا استطيع ان اعتمد على خبرتك النفسية عندئذ

الفيلسوف : ان ما تسميه انت حالة اغماء هو ما اسميه انا حالة «الاشراق» او «التجلي» وعندها تصفو الروح من مكدرات الحواس وتتصل النفس بالحق

العالم : اعذرني اذا انا فضلت البقاء في حالة الوعي التام واعتمدت على نتائج المشاهدة والتفكير

الفيلسوف : لك ان تفعل ذلك ولكنك لن تصل بذلك الى حقيقة شيء بل ستعيش في عالم من الرموز والظلال . وهنا يفترق الرجلان كلٌّ يظنُّ اخاه واهماً

هذه المحاورة الوهمية التي سردتها لحضراتكم ربما حدثت بين عالم وفيلسوف خفائي في القرن الماضي . الا ان العلم والفلسفة قد تطور كل منها في اوائل هذا القرن بحيث اقتربت وجهتا النظر وأصبح من الميسور أن يتفاهما . وربما استغرب بعضكم ان يسمع ان اول خطوة في سبيل هذا التفاهم خطاها السير اسحاك نيوتن العالم الفلكي الطبيعي منذ نحو قرنين ونصف قرن لما وضع قانون الجاذبية العامة . فكلكم قد سمع الحكاية التي تحكى عن ان نيوتن رأى تفاحة تسقط من شجرة فأوحى اليه هذا الحادث ان الارض تجذب التفاحة اليها وتدرّج من ذلك الى ان الارض تجذب القمر والشمس تجذب الارض الخ . لنتأمل في رأي نيوتن هذا . اي جزء منهُ واقع تحت المشاهدة وأي جزء خارج عنها ؟ ان التفاحة والارض وحركة التفاحة كل هذه اشياء يمكن مشاهدتها . ولكن ما هي هذه القوة التي تجذب الارض بها التفاحة ؟ نحن نعلم انهُ لا يوجد ارتباط مادي بين الارض والتفاحة فكيف اذن يمكن ان تشد الارض التفاحة ؟ الستم ترون ان نيوتن اضطر الى افتراض وجود عامل خفي لا تتسنى مشاهدته لكي يفسر حركة التفاحة ؟ هذا العامل الخفي — او العفريت الاصطناعي — هو ما سماه الجاذبية الارضية . حقيقة ان لفظ الجاذبية عليه شيء من الطلاء العلمي ولكن يجب ان لا نغترّ بالاسماء فالجاذبية كانت ولا تزال نوعاً من السحر العلمي والقول بوجودها هو القول بوجود سرّ من الاسرار الخفية في نظام الكون او طلسم من الطلاسم التي لا تصل الى كنهها العقول . ومع هذا فقد ظلّ العلم اكثر من مائتي عام بعد نيوتن بعيداً عن الفلسفة الخفائية . فالجاذبية وقوانينها ان هي الا جزء يسير من العلوم الطبيعية — وان كان جزءاً اساسيًّا فيها — وهناك المادة التي نشاهدها ونجري تجاربنا عليها كما ان هناك الحرارة والكهربائية والضوء وكلها أشياء محسوسة تكوّن اساساً مقنعاً مشاهداً للعلم

والخطوة الثانية التي قربت العلم من الفلسفة الخفائية خطاها علماء الطبيعة في أواخر القرن الماضي حين افترضوا وجود الأثير . فالاثير الذي افترضوه هو شيء لا يمكن مشاهدته ومع ذلك فقد كان في افتراضه تبسيط للحقائق الطبيعية ولمّ شعثها بحيث يستطيع العقل

البشري ان يفهمها ويؤلف بين اجزائها . وكما ان قوى الجاذبية موجودة في جميع انحاء الفضاء فكذلك الاثير مالىء له فكأنما العالم بحر هائل من الاثير . المادة إن هي الا اجزاء صغيرة فيه تختلف خواصها عن خواص ما حولها من الاثير. وكان العلماء في اوائل هذا القرن يتكلمون عن المادة كما لو كانت مجرد ظاهرة اي ظرف خاص من ظروف هذا الاثير . اليس هذا معناه ان الحقيقة الاصلية وهي الاثير شيء لا يقع تحت حسنا وان ما يقع تحت حسنا وهي المادة انهي الا ظرف خاص من ظروف الحقيقة او هي ظل من الظلال الزائلة في عالم الحقيقة ؟

ثم جاء اينشتين بنظريته المعروفة بالنسبية وجاء دي بروي وشرويدنجر بأن المادة إن هي الا امواج في لا شيء لا سبيل الى وصفها الا باستعمال الرموز الرياضية المعقدة فتلاشت الاسس المادية التي كان العلم يبني عليها صرحهُ واستعضنا عنها بمعادلات رياضية هي في ماديتها اوهى من نسيج العنكبوت . ولكي ادلكم على موقف العلم إزاء الفلسفة الحقائية سانقل لحضراتكم ترجمة من قول الاستاذ السر ارثر ادنجتن من اكبر العلماء الفلكيين والطبيعيين في هذا العصر من كتابه « كنه العالم الطبيعي » ص ٣٢٧ . « كنا يعلم ان هناك انحاء من النفس البشرية غير مقيدة بعالم الطبيعة . ففي المعنى الخفي للخليقة التي نحيط بنا وفي التعبير الفني وفي النزوع نحو الله — في كل هذه تطمح النفس الى العلى ونجد تحقيقاً لشيء مودع في طبيعتها. وتبرير هذا الطموح داخلي فينا فهو محاولة من جانب ادراكنا او هو نور داخلي ناشيء عن قوة اعظم من قوتنا . والعلم يكاد لا يقدم على الشك في تبرير هذا الطموح إذ ان الرغبة في العلم هي نفسها ناشئة عن وازع داخلي لا نقوى على ردعه . فسواء في الاستزادة الفكرية من العلم او في سائر النزعات الروحية الخفية في كلتا هذين امامنا نور يجذبنا إليه ونحن نشعر بالرغبة في السعي نحو هذا النور. ألا يكفي ان تترك المسئلة عند هذا الحد وهل من الضروري أن نصر على استخدام كلمة الحقيقة كما لو كانت لازمة لتشجيعنا في مجهوداتنا »

هكذا يكتب العالم الطبيعي اليوم . وانتم ترون ان المحمل العقلي الذي انطوت عليه هذه الكتابة يختلف كثيراً عن المحمل العقلي الذي كان يقرن بالعلم حتى اوائل هذا القرن . فالعلم قد ادرك أن المعرفة البشرية متعددة النواحي وان طريقة المشاهدة والتحليل المنطقي التي بنى عليها عمله ليست بالطريقة الوحيدة التي يمكن ان يسلكها المرء في الوصول الى المعرفة كما ان هذه الطريقة قد ادت بنا الى نوع من التفكير الخفائي بحيث صارت الشقة بيننا وبين الفلاسفة والعلماء الروحيين غير بعيدة . ومن يدري فلعل ابناء الجيل القادم يرون علماء الطبيعة وعلماء الدين والفلاسفة متصافحين متكاتفين على خدمة البشر في النواحي الثلاث الطبيعية والروحية والتفكيرية